وقد وجدت الكنيسة في الحريق الكبير الذي حدث فرصة مناسبة . فمرشد القيصر الديني رأى فيه دون تحفظ انه من تأثير السحر الأسود . ولم تكن الكنيسة في مجموعها تذهب الى هذا الراي . كانت الكنيسة بدون شك تؤمن بالسحر الأسود على انه قوة شيطانية تظهر على يد اناس يسمون بالسحرة ، اما في هذه الحالة فإنها كانت تؤمن بأن إرادة العلي الأعلى هي التي دمرت موسكو عن طريق هذا الحريق الذي كان في الماضي قد دمر سودوم وعمورية وللأسباب نفسها .

وفي اللحظة التي تفرق فيها الجمهور تاركاً جوانب قصر جبل العصافير تقدم كاهن بسيط من كاتدرائية الصعود الى القيصر والقيصرة رافعاً إصبع التحذير وطالباً منهما التوبة والندامة . كان هذا الكاهن هو سيلڤستر النوڤغورودي الذي كان كما يقال شبيهاً بقديس أرسله الله ، واولئك الذين يرسلهم الله يصلون دائماً في اللحظة النفسية المناسبة ولذلك لا ينبغي علينا أن ندهش من ان إيڤان لم يأمر بإيداعه في السجن .

« لقد أرسل الله صواعقه عليك أيها القيصر بسبب طيشك وسوء أهوائك حتى أكلت نار السماء موسكو وأفرغ كأس الله في قلب شعبك » .

ثم تحدث سيلڤستر عن نبوءات واشارات كان قد لاحظها وعن رؤى كانت حكماً على القيصر من الله . وبعد ذلك اخذ يشرح الكتاب المقدس الذي ينشر أحكام الله على ملوك الأرض ، واظهر لإيڤان أخطاءه واستعجله التوبة والندم خوفا من أن ينقض مصير اسوأ عليه وعلى البلاد .

وقد يكون من المحتمل أن يكون المتروپوليت ماكاري على علم بهذا الخطاب الجريء الذي بدا انه نجح وحقق هدفه بعد أن غزا عقل القيصر خوف من المجهول فركع على ركبته وتوسل الى قوة الله وحكمته وحكمة قديسيه كي يكون اقدر على الحكم باستقامة أكبر وتقى أعظم . ويبدو أن كل كتاب حوليات العصر وكل المؤرخين بدون استثناء نظروا الى